المحور2: الأزمات العلمية والمعرفية وأثرها على الفلسفة المعاصرة

تمهيد: إرتباط الفلسفة بالعلم عبر التاريخ أمر لا يمكن إنكاره، وليست الفلسفة " أم العلوم " فحسب كما أشار إلى ذلك ديكارت عندما اعتبر الفلسفة كشجرة جذورها الميتافيزيقا و جذعها الفيزياء وأغصانها بقية العلوم، بل الفلسفة حاضرة في كل التطورات والأزمات العلمية المعاصرة، حيث تتأثر بتلك الأزمات العلمية والمعرفية وتعيد صياغة مفاهيمها ومناهجها ونتائجها.

1- مفهوم الأزمة العلمية والمعرفية:

الأزمة العلمية تحدث دائما لما تعجز نظرية علمية معينة عن تفسير مشكلات جديدة في اختصاصها، فتدخل تلك النظرية في أزمة، فالأزمة العلمية هي عدم قدرة النظرية العلمية السائدة أو الأنموذج العلمي السائد عن تفسير مشكلات علمية جديدة، وهذا ماذهب اليه غاستون باشلار وتوماس كوهن لكن الأزمة العلمية ليست فقط دخول النظريات العلمية في عجز عن تفسير الجديد، بل قد تكون أزمة منهجية عبر عليها أكثر كارل بوبير عندما أشار إلى أزمة المنهج العلمي في تصور الوضعيين، حيث رفض بناءه على مبدأ التحقق التجريبي وافترض نقيضا لذلك وهو مبدأ التفنيد، فأساس التفكير العلمي هو أن تعرض النظرية أو الفرضية العلمية نفسها على مبدأ التفنيد من خلال مثال مضاد.

2- أهم الأزمات العلمية المعاصرة: يمكن عرض بعض الأزمات العلمية والمعرفية المعاصرة، ومن ثم تتبع تأثيرها على الفلسفة المعاصرة كما يلي:

أ- **أزمة الفيزياء الكلاسيكية :** تظهر في عدم قدرة فيزياء نيوتن الميكانيكية على تفسير ظواهر مثل الضوء فيما إذا كان طاقة أو مادة، وعالم الذرات ما إذا كان يخضع للحتمية أم للإرتياب والاحتمال...، ومثل هذه المشكلات هي التي أسست لظهور نظريات فيزيائية جديدة مثل النظرية النسبية لدى أنشطاين وميكانيكا الكم لدى هيزنبرغ وماكس بلانك اللتان قلبتا رأسا على عقب المفاهيم المطلقة النيوتونية للزمان والمكان والسببية والحتمية. هذا خلق حقلاً خصباً **لفلسفة الفيزياء**، حيث يتساءل الفلاسفة: هل تصف النظرية الواقع؟ ما طبيعة العشوائية الكمومية في الذرات؟ هل السببية وهم؟

ب- **أزمة أسس الرياضيات:** لقد ظل العلماء يعتقدون أن الرياضيات قائمة على مبادئ وأفكار عقلية بديهية مطلقة، مثل نظريات إقليدس وديكارت، لكن أعمال علماء الأكسيوماتيك مثل مورغان ولوباتشفسكي وريمان أثبتت أنه في الإمكان بناء نظريات هندسية جديدة على أسس ومسلمات مختلفة وحتى متناقضة مع هندسة إقليدس فيما يسمى بالهندسات اللاإقليدية، وهزت هذه الأزمة الفلسفة الأنجلوسكسونية مع راسل ووايتهد وفي أعمال فلاسفة مثل فريجه وهيلبرت حيث يطرح السؤال حول اليقين الرياضي، مما أدى مباشرة إلى بروز مشاريع فلسفية منطقية ضخمة مثل كتاب "مبادئ الرياضيات".

ت- أزمة البيولوجيا والتكنو-بيولوجيا: طرحت البيولوجيا المعاصرة لاسيما في علم الوراثة مشكلات علمية مثل الطفرة الوراثية والاستنساخ، وفي الطب مشاكل التحكم في الإنجاب وأطفال الأنابيب والأم البديلة، التلقيح الاصطناعي، الإجهاض، الحق في الموت، ومشروعية استخدام الأدوات التقنية في الحالات الميؤوس منها...وهذا يطرح الحاجة إلى التفكير في أخلاقيات تطبيقية متقدمة.

3- أهم الأزمات المعرفية: تطرح الأزمة المعرفية التناقض بين ما نسلم به من معتقدات وأفكار وبين الأفكار الجديدة التي تشكك فيها وتتجاوزها، وفي هذا السياق يمكن أن نذكر ما يلي:

أ- أزمة المركزية الغربية: صعود دراسات ما بعد الاستعمار وتاريخ العلوم يكشف كيف أن المعرفة "العالمية" غالباً ما تكون محملة بافتراضات ثقافية غربية، تجعل من الغرب مركزا للفكر والثقافة العالمية، والتشكيك في هذه المركزية يغذي تيارات نسبية المعرفة والنقد الاجتماعي-الثقافي للعلم المعرفة.

غير أن نقد هذه الأزمة كان أيضا من داخل الثقافة الغربية نفسها، حيث طرحت الثقافة الغربية مركزية الدين، ثم مركزية العقل، مركزية العلم...وفي كل مرة يجري تجاوز لهذه المركزيات بالتشكيك فيها ونقدها.

ب- أزمة المركزية الإنسانية :الاكتشافات (مثل نظرية التطور، علوم الأعصاب، علم البيئة) تضع الإنسان في موقعه الطبيعي، ككائن طبيعي وليس كمركز للكون. هذا أدى إلى ظهور تيارات فلسفية طبيعية تنزع الغموض عن العقل والوعي بمعالجتهما كظواهر طبيعية، وتيارات فلسفية ما بعد إنسانية تشكك في الحدود الفاصلة بين الإنسان والآلة والحيوان.

4- النتائج الفلسفية للأزمات العلمية والمعرفية: يمكن حصر النتائج الفلسفية لتلك الأزمات العلمية والمعرفية في النقاط التالية:

أ- تبعث الفلاسفة على توليد مشكلات فلسفية جديدة، مثل نسبية المعرفة والمعرفة العلمية، مما دفع الفلاسفة إلى هجرة الآراء المطلقة والآراء المنغلقة والقول بالتعددية، والتساؤل عن طبيعة المنهج العلمي كما لاحظنا عند بوبير، وإشكالية تطوره عند غاستون باشلار وتوماس كون..

ب- التشكيك والنقد للمركزيات التقليدية وهذا مالاحظناه ابتداء من نيتشه في نقده العنيف للثقافة والفلسفة الغربية، وتوالى هذا النقد مع هيدغر في نقده للأنطولوجيا الغربية وماركس في نقده للرأسمالية والفلسفات المثالية، وهابرماس في نقده للإيدولوجيا المتخفية تحت غطاء العقل العلمي والتقني.

ت- تؤدي الأزمات العلمية والمعرفية إلى خلق إتجاهات فلسفية جديدة كرد فعل على الاتجاهات الفلسفية القديمة، وهكذا كان التفكيك عند جاك دريدا ضد البنيوية، وكانت الواقعية الجديدة عند جورج مور وبرترندراسل ضد المدارس التأويلية التي حصرت الفلسفة في النصوص.

ث- تأكيد الفلسفة على الأخلاقيات التطبيقية، حيث دفعت المشكلات البيولوجية والطبية والبيئية الفلاسفة إلى نقد مخاطرها وتقويمها وفق قيم المسؤولية والحرية الفردية والعدالة، وهكذا ظهرت فروعا جديدة في الأخلاقيات التطبيقية مثل البيوإتيقا وأخلاقيات البيئة وأخلاقيات المهنة...إن التقدم في الهندسة الوراثية جعل فيلسوفا مثل كريسبر يطرح أسئلة فلسفية عن طبيعة الحياة والهوية البشرية والعدالة، وأزمة أخلاقيات الذكاء الاصطناعي تخلق حاجة ملحة لفلسفة العقل، فلسفة الوعي، ونظريات العدالة والمسؤولية، وأزمة المناخ تدفع باتجاه تطوير أخلاقيات بيئية جديدة تتحدى الأطر الأخلاقية التقليدية المتمركزة حول الإنسان.

ج- تؤدي تلك الأزمات إلى تعزيز التكامل بين الفلسفة والعلوم وكل التخصصات الأخرى عمليا، والدليل على ذلك ما نجده في البيوإتيقا حيث يلتقي الفلاسفة مع البيولوجيين والأطباء والقانونيين والسياسيين، وكذلك في الأزمات المعقدة مثل أزمة الوعي، أزمة المناخ تفرض تعاوناً متداخل التخصصات.

لم يعد الفيلسوف ينظر من برجه العاجي، بل أصبح شريكاً في فرق بحثية مع علماء الأعصاب وعلماء المناخ وعلماء البيانات. الفلسفة هنا تقدم:

- توضيح المفاهيم مثلا: ما المقصود بـ "الوعي" أو "الاستدامة" أو "المسؤولية"؟
- فحص الافتراضات: ما الافتراضات الميتافيزيقية الكامنة في نماذج المناخ أو نظريات الذكاء الاصطناعي؟
- ربط السياقات: ربط الاكتشافات العلمية بآثارها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية الأوسع.

خلاصة: يمكن تشبيه دور الفلسفة تجاه الأزمات العلمية والمعرفية بدور" الجهاز المناعي المعرفي" للحضارة:

1. الكشف: تكتشف الفلسفة مواضع الخلل والتناقض في أساسيات تفكيرنا مثل أزمة السببية في ميكانيكا الكم.
2. الاستجابة: تنتج تأويلات فكرية متنوعة لمحاولة فهم واحتواء الأزمة.
3. التكيف: تساعد في تطوير أطر مفاهيمية جديدة تسمح لنا بالتعايش مع عدم اليقين والتعقيد الذي تكشفه الأزمات كفكرة "إدارة المخاطر" بدلاً من "السعي لليقين المطلق.
4. الذاكرة: تحتفظ الفلسفة بتاريخ الأزمات السابقة وحلولها، مما يمنعنا من تكرار الأخطاء مثل تجارب النازية الطبية التي شكلت أساس أخلاقيات البيولوجيا المعاصرة.

نستنتج: الأزمات العلمية والمعرفية ليست تهديداً للفلسفة، بل هي مادتها الخام الأكثر حيوية .في عالم يتسم بأزمات وجودية (مناخ، ذكاء اصطناعي، جائحات)، يزداد الطلب على الدور الفلسفي النقدي والتأويلي والتكاملي. الفلسفة المعاصرة، إذن، هي فلسفة في زمن الأزمات، وهي تثبت ضرورتها من خلال قدرتها على مواجهة هذه التحديات المعرفية الهائلة.